شذرات لاهوتية

المبادئ المسيحية وساحة السياسة الحزبية[1]

ش. د. إيهاب الخراط

بداية: لا نرى إمكانية وجود "تيار مسيحيَّة سياسية"

نرى أنه لا يمكن –من منطلق الكتاب المقدس– أن تنادي مجموعة من المسيحيين بأن حزبهم هو الذي يمثل الإيمان المسيحي ويترجمه في برامج سياسية. بعض المسيحيين يستندون لمبادئ مسيحية في الطيف السياسي الحزبي: اليمين واليسار، ويسار الوسط، ويمين الوسط، والقوميين... ولكن كتابيًّا ولاهوتيًّا لا يمكن أن تدَّعي أحزابٌ بعينها أنها تمثِّل المسيحية، أو أنَّ في المجال السياسي هناك "منظور مسيحي" سياسي يتميز عن باقي الطيف السياسي.

المؤمن المسيحي يمكن أن يلتزم بحزبٍ من اليمين أو اليسار أو الوسط، ويظل في التزامه هذا منطلقًا من مبادئيَّة كتابية مسيحية. في تنوع المبادئ المسيحية نرى أن من هذه المبادئ ما تميل أحزاب اليسار ويسار الوسط إلى توكيده؛ مثل العدل والانحياز للفقراء والمحاماة عنهم وإعادة توزيع الثروة والمساواة. لكن من هذه المبدئ الكتابيَّة أيضًا ما تميل أحزاب اليمين ويمين الوسط إلى توكيده؛ مثل الثراء كبركة واصطناع الثروة والتوجه الوطني القومي. آخذين في الاعتبار أن التوجُّه الوطني أو القومي يمكن أن يتبدَّى في صورة يسار ذي صبغة قومية، كالناصرية والبعث، أو يمين ذي صبغة قومية؛ كأحزاب أقصى اليمين الأوروبي مثل حزب الجبهة الوطنية الفرنسية.

[1] هذا المقال هو بمثابة مراجعة بتصرف على فصل نشرته في كتاب "بين الدين والسياسة" تحرير د. إلياس غزال دار منهل الحياة بالشراكة مع رابطة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا للتعليم اللاهوتي.

لكن نرى ضرورة العمل السياسي

وسنفصّل هنا قليلًا المبادئ الكتابية التي تحث المسيحي على تحمُّل مسؤوليته السياسية، وسنفصّل أيضًا الاعتراضات التقليديَّة على العمل السياسي.

يدفعنا الكتاب المقدس إلى السعي نحو العدل والكرامة والمساواة لكل الناس. "اِفْتَحْ فَمَكَ لأَجْلِ الأَخْرَسِ فِي دَعْوَى كُلِّ يَتِيمٍ. اِفْتَحْ فَمَكَ. اقْضِ بِالْعَدْلِ وَحَامِ عَنِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ." (أم 31: 8– 9).

"قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلاَّ أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلهِكَ." (مي 6: 8). "يَا بَيْتَ دَاوُدَ، هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: اقْضُوا فِي الصَّبَاحِ عَدْلًا، وَأَنْقِذُوا الْمَغْصُوبَ مِنْ يَدِ الظَّالِمِ، لِئَلاَّ يَخْرُجَ كَنَارٍ غَضَبِي فَيُحْرِقَ وَلَيْسَ مَنْ يُطْفِئُ، مِنْ أَجْلِ شَرِّ أَعْمَالِكُمْ" (إر 21 : 12). "هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: أَجْرُوا حَقًّا وَعَدْلًا، وَأَنْقِذُوا الْمَغْصُوبَ مِنْ يَدِ الظَّالِمِ، وَالْغَرِيبَ وَالْيَتِيمَ وَالأَرْمَلَةَ. لاَ تَضْطَهِدُوا وَلاَ تَظْلِمُوا، وَلاَ تَسْفِكُوا دَمًا زَكِيًّا فِي هذَا الْمَوْضِعِ. لأَنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ هذَا الأَمْرَ يَدْخُلُ فِي أَبْوَابِ هذَا الْبَيْتِ مُلُوكٌ جَالِسُونَ لِدَاوُدَ عَلَى كُرْسِيِّهِ رَاكِبِينَ فِي مَرْكَبَاتٍ وَعَلَى خَيْل. هُوَ وَعَبِيدُهُ وَشَعْبُهُ. وَإِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لِهذِهِ الْكَلِمَاتِ فَقَدْ أَقْسَمْتُ بِنَفْسِي، يَقُولُ الرَّبُّ، إِنَّ هذَا الْبَيْتَ يَكُونُ خَرَابًا" (إر 22: 3– 5). وخاصةً في كلمات الرب يسوع التي افتتح بها خدمته الجهارية في الأرض: "رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ، وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ" (لو4: 18– 19).

ويدعونا الرب أن نكون نور العالم وملح الأرض: «أَنْتُمْ مِلْحُ الأَرْضِ، وَلكِنْ إِنْ فَسَدَ الْمِلْحُ فَبِمَاذَا يُمَلَّحُ؟ لاَ يَصْلُحُ بَعْدُ لِشَيْءٍ، إِلاَّ لأَنْ يُطْرَحَ خَارِجًا وَيُدَاسَ مِنَ النَّاسِ. أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ. لاَ يُمْكِنُ أَنْ تُخْفَى مَدِينَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَى جَبَل، وَلاَ يُوقِدُونَ سِرَاجًا وَيَضَعُونَهُ تَحْتَ الْمِكْيَالِ، بَلْ عَلَى الْمَنَارَةِ فَيُضِيءُ لِجَمِيعِ الَّذِينَ فِي

الْبَيْتِ. فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ." (مت 5: 13– 16). إذن فكما يتخلل الملحُ كلَّ جزء من الطعام، ومثلما يغمر النور كل الفضاء الذي يضيء فيه، على المؤمنين بالمسيح أن يشاركوا بفاعلية في كلِّ مكونات المجتمع البشري وجوانبه: الصناعة والزراعة ومجال المال والأعمال والتعليم والصحة والثقافة والفن والسياسة.

المؤمن المسيحي إذن ليس موضوعًا "تحت المكيال" بل على المنارة.[2] وهو ليس مجرَّد "مرسل" إلى الخطاة لكنه واحد منهم، ينتمي لآمالهم وأحلامهم، وأوطانهم. والعمل السياسي إنما هو تعبيرٌ عن هذا الانتماء. بل يقول القس واللاهوتي المعمداني، الذي أعدمه النظامُ النازي لاشتراكه في محاولة فاشلة لاغتيال هتلر: "تعلَّمنا –ربما في وقت متأخر جدًّا– أن الفعل لا ينبع من الفكر، بل من الاستعداد لتحمل المسؤولية... الصمت أمام الشر هو في حدِّ ذاته شرٌّ، ولن يبرئنا الله. عدم الكلام هو كلام، وعدم الفعل فعل. المسيحية تقوم أو تسقط، وتنجح أو تفشل، بحسب قدرتها على اتخاذ موقف احتجاجيٍّ ثوريٍّ ضد العنف والعشوائية وزهو السلطة. بحسب قدرتها على الدفاع عن الضعفاء. والمسيحيون لا يقومون بما يكفي لإيضاح هذه النقاط المحورية في إيمانهم. العالم المسيحي تأقلم بيُسر شديد مع عبادة السلطة. على المسيحيين أن يقدموا العثرات للعالم ويصدمونه أكثر بكثير بما يفعلون الآن. عليهم أن يتخذوا موقفًا أكثر قوة لصالح الضعفاء، بدلًا من مزيد من الاهتمام بالحفاظ على الحقوق "المُحتَمَلة" للأقوياء"[3].

[2] الفقرات الأخيرة من هذا المكوّن تعتمد إلى حدٍّ بعيد على مقالي المنشور في العدد الأول من المجلة الإلكترونية تيسلو بعنوان "المسيح والثورة"، نوفمبر 2019. وعلى أجزاء من الخطاب الذي ألقيته في حفل التخرج بكلية اللاهوت الإنجيلية بالعباسية في يونيو 2011 بعنوان "الشهادة المسيحية في ربيع الثورة العربية: منظور إنجيلي".

[3] Fox, M, Christian Mysticism P. 353-4

القس هوارد ثورمان[4]، هو راعٍ معمدانيٌّ أمريكيٌّ من أصل أفريقي، وقد أثر تأثيرًا كبيرًا في التكوين الفكري والروحي للدكتور القس مارتن لوثر كينج، زعيم حركة الحقوق المدنية للسود في أمريكا. له مداخلة مهمة في هذا السياق، فيقول: "أعلن يسوعُ الأخبارَ السارة أن كلاب المطاردة الثلاثة الخارجة من الجحيم: الخوف والنفاق والكراهية، الكلاب التي تتعقب مسيرة المحرومين في كل جيل، ليس لها سلطان على الذين يقبلون أخباره المفرحة هذه. في مواجهة عدوانية العالم اليوناني– الروماني، صار يسوع لنفسه ولشعبه كلمة وعمل الفداء لكل المنبوذين في كل جيل وعصر. المسيحية التي وُلِدَت في ذهن هذا المعلم والمفكر اليهودي تتجلى كتكنيك يتيح للمقموعين البقاء والحياة في مواجهة القمع، وهذا التكنيك هو واقع أوَّليٌّ خام. لقد صارت المسيحية في سنوات لاحقة ديانة للسادة وذوي السلطة، لكن هذا لا ينبغي أن يجعلنا نظن أنها كانت كذلك في زمن يسوع أو في حياته: "فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس"، ولا يزال المقهورون يستجمعون شجاعة طازجة كلما تجلت هذه الحقيقة الأولية بصورتها الخام أمامهم".[5] ويتأسف د. مارتن لوثر كينج ويقول بأسى: "في خصم نضال جبار من أجل تخليص أمتنا من الظلم والاقتصادي، سمعت خدامًا دينيين كثيرين يقولون: هذه مسائل اجتماعية، لا صلة حقيقية بينها وبين الإنجيل. ورأيت كنائس كثيرة تلزم نفسها بديانة أخروية (لا تهتم إلا بالحياة الأخرى، وتقيم تمايزًا دخيلًا وغير كتابي بين الجسد والروح وبين ما هو مقدس وما هو دنيوي".[3]

تتضمن التحفظات على العمل الحزبي السياسي، أنه انشغال بأمور "هذا العالم" واهتمام بالأمور الزمنية لا الأبدية. ولكن أقول مع كوستى بندلي في أنه "قد تكون مسألة الخبز بالنسبة لي مسألة زمنية، ولكن الخبز

[4] Fox, M, Christian Mysticism P. 213

الذي يحتاجه أخي هو قضية روحية". "إِنْ كَانَ أَخٌ وَأُخْتٌ عُرْيَانَيْنِ وَمُعْتَازَيْنِ لِلْقُوتِ الْيَوْمِيِّ، فَقَالَ لَهُمَا أَحَدُكُمُ: «امْضِيَا بِسَلاَمٍ، اسْتَدْفِئَا وَاشْبَعَا» وَلكِنْ لَمْ تُعْطُوهُمَا حَاجَاتِ الْجَسَدِ، فَمَا الْمَنْفَعَةُ؟" (يع 2: 15– 16).

يقول القائد الكاريزماتي البريطاني المعاصر روجر فورستر: "يوم الخمسين هو حيث يحضر الله الموجود في كل مكان إلى مكان معين. فنستطيع آنذاك أن نجده ونجد نعمته في كل مكان في العالم.. نمتلئ بالروح لنناضل من أجل العدل للمظلومين، ومن أجل أخلاقيات الفرد الصغيرة، وكذا أخلاقيات المجتمع الكبرى. نعمل ونصلي من أجل العدل والسلام كما نصلي ونعمل من أجل خلاص النفوس".

ويشيع تحفظ مسيحي آخر هو أن العمل السياسي عبث؛ لأن العالم موضوع في الشرير وسيتدهور بالضرورة ولن يوقف هذا التدهور إلا مجيء المسيح. لكن سواء كان العالم سيتدهور أخلاقيًّا وروحيًّا، أو يستقدم حتى مجيء المسيح على سحاب المجد، فواجبنا أن ننتظره ونطلب سرعة مجيئه وهذا الانتظار ليس الخمول أو الانسحاب، بل إن انتظارنا لملكوته يعني الصلاة من أجل هذا الملكوت: ملكوت العدل والحرية والحب، ويعني بالضرورة العمل ضد الظلم والقمع والاستغلال. لأننا ننتظر المجد السماوي، ينبغي أن نسعى بلا هوادة لجعل هذا العالم مكانًا قريب الشبه بالسماء. لا لأنفسنا فقط بل لكل الناس، لا داخل الكنيسة فقط بل على امتداد المجتمع. ولأننا نثق في عناية الله وتدخُّله، فعلينا أن ندافع عن العدل وننقذ المغصوب من يد الظالم. ونحامي عن حقوق الإنسان وندافع عنها، سواء كان هذا الإنسان مسيحيًّا أو غير ذلك، وسواء كان هذا الإنسان متفقًا معنا في الرأي أو مخالفًا، وسواء كان صديقًا أم عدوًّا. وهذه هي الأساسات والدوافع السليمة للعمل السياسي.

وفي هذا المقام يؤكد رجل النهضات تشارلز فيني في كتابه "علم اللاهوت النظامي"، قائلًا: "يقال إن على المسيحيين أن يتركوا إدارة الحكومات البشرية لغير المؤمنين. حتى لا يتشتت المؤمنون عن عمل خلاص

النفوس ليتدخلوا فيما لا يعنيهم من عمل الحكومات البشرية. ونرد على هذا بأن نقول إن التمسك بالسعي نحو حكومات صالحة ليس تشتيتًا عن عمل خلاص النفوس، وتعزيز السعادة الخاصة والعامة هو أحد الوسائل الضرورية لعمل الخير وخلاص النفوس والإقرار بأن المسيحيين ينبغي أن يلتزموا بطاعة نظام الحكم البشري، ومع ذلك لا يكون لهم شأن باختيار من سيحكم، هو محض لغو فارغ".

وفي موضع آخر يناقش فيني: "يقال إنه إذا صار العالم مقدَّسًا فلن تكون هناك حاجة لتوقيع عقوبات، ونرد بأن نقول إذا صار كل إنسان قديسًا فتوقيع عقوبات لن يكون ضروريًّا، ولكن طالما هناك قانون فمن حق وواجب السلطات أن تطبقه... على أن هذه الحالة (من قداسة كل إنسان) ليست قائمةً الآن، ولذا فعلينا أن نستمر في وضع القوانين وتطبيقها". يطرح تشارلز فيني هدف أي نظام حكم بأنه الخير الأسمى لكل المواطنين، ويؤكد أنه إذا كانت أي قوانين أو سياسات لا تسعى لهذا، فهي والعدم سواء، وليس على أي مواطن أن يطيعها. وهنا يبدو مرةً ثانيةً تأثُّر فيني بإيمانويل كانط فيما يُعرَف سياسيًّا "بالمبدأ الكانطيّ" حرية كل إنسان تساوي حرية أي إنسان آخر والقوانين التي لم تشارك في وضعها ليس عليك واجب الالتزام بها.

ولعلنا نرى أن كل نظام فيني اللاهوتيّ متأثِّر تأثرًا كبيرًا بالفلسفة الهيمونستية، بل ربما يصحُّ أن نقول إنه ترجمة مسيحية، أو إعادة تنصير –إن شئت– للفلسفة الليبرالية الإنسانية الكانطية، التي هي في الواقع رافد أساسي لتكوين التعددية السياسية كما نراها في البلاد الديمقراطية.

ومن منظور دول العالم الثالث يقول بارات Parrat، من وجهة نظر علم اللاهوت الأفريقي مقتطفًا اللاهوتي انكراه Ancarah: "إن المرسلين الأوروبيين روَّجوا مسيحية تقوية، وسؤال الأبعاد الاجتماعية–السياسية للإنجيل كان دائمًا يتم تذليله لغرض حصول الفرد على الحياة الأبدية". وهنا يقتطف بارات من الأسقف ديزموند توتو: "كثيرًا ما خُذِل القادة السياسيون بواسطة قيادات كنسية متملقة وذليلة. قيادات كان

ينبغي لها أن توفر للشعب إرشادًا أدبيًّا وأخلاقيًّا، ولكنها ارتضت لنفسها دورًا انتهازيًّا. الكنيسة في أفريقيا تواجه تحديات الظلم والفساد والقمع والاستغلال، ولا يوجد لها أي خيار سوى تحقيق دعوتها النبوية أو التشكك في كونها فعلًا كنيسة يسوع المسيح". وهذا ينطبق أيضًا لا على الكنيسة في أفريقيا فحسب بل وعلى الكنيسة في الشرق الأوسط وخاصة العالم العربي، ولعله ينطبق على الكنيسة في كل مكان في العالم.

عدم إمكانية القول بتوجه سياسي واحد المسيحية

رغم أن العهد القديم يتأسس على متابعة جذور وتطورات دولة ثيوقراطية، وهو زاخر بالأنبياء المحاربين والملوك الذين يسعون إلى تثبيت عبادة الرب وشرائعه ومقارنتهم بالملوك الذين هم غير ذلك، إلا أن المسيح كان حاسمًا في رفضه لأن يكون نبيًّا محاربًا أو ملكًا أو ثائرًا سياسيًّا: "أَجَابَ يَسُوعُ: مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هذَا الْعَالَمِ." (يو18: 36). وفي هذا السياق نود أن نقدم بُعدًا آخر لكلمات يسوع التي تُستَخدَم عادةً لتأسيس مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة، وأحيانًا لتبرير انعزال المسيحي عن السياسة، أو فصل موقفه من السياسة عن قناعاته المبادئية والروحية. "أَعْطُوا إِذًا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلهِ لِلهِ" (مت 22: 21 ولو20: 25). يجب أن نلاحظ هنا أن الوطنيين ذوي النزعة الدينية والداعين إلى عدم دفع الجزية لقيصر كانوا سيمسكون على يسوع زلةً إن نادى بدفع الجزية لقيصر. وعملاء القيصر وأتباعه كانوا سيمسكون عليه جريمة الدعوة لعدم دفع الجزية، إن دعا لعدم دفع الجزية. ومن ثم عندما سأل يسوعُ عن "صورة من على العملة؟"، كان يقول للثوريين المتدينين إن اسم الله كان يجب أن يكون على العملة؛ أي أنه كان يرسل لهم رسالةً ضمنيةً؛ إذن فلنخلع قيصر ونضع اسم الله على عملة شعب الله. ثم للرومان وأتباعهم هو قال نصًّا: "أعطوا ما لقيصر لقيصر"، فلم يمنع دفع الجزية. غرض هذه الإجابة الأساسي هو الإفلات من الفخ المزدوج

الذي كان مُعَدًّا ليسوع. لكن في كل الأحوال تفادى يسوع المشاركة الفعلية مع الثوار كما تفادى الانضمام لدعاة الاستقرار تحت رعاية القيصر.

وفي واقعة دفع الدرهمين نرصد عدة ملاحظات مهمة وذات طبيعة سياسية. فعندما سأل جباة الدرهمين بطرس: "أما يوفي معلمكم هذه الضريبة؟" وأجاب بطرس: "بلى"، ثم لما قابل يسوع سأله يسوع: "مَاذَا تَظُنُّ يَا سِمْعَانُ؟ مِمَّنْ يَأْخُذُ مُلُوكُ الأَرْضِ الْجِبَايَةَ أَوِ الْجِزْيَةَ، أَمِنْ بَنِيهِمْ أَمْ مِنَ الأَجَانِبِ؟" قال له بطرس: "مِنَ الأَجَانِبِ"، قال له يسوع: "فَإِذًا الْبَنُونَ أَحْرَارٌ (أي معفيون من الجزية)" (مت 17: 24– 26). هنا نسب يسوع لنفسه أنه من أبناء الإمبراطورية الرومانية، كأنه –معنويًّا– مواطن روماني وهو رسميًّا لم يكن حائزًا على الجنسية الرومانية. بخلاف بولس مثلًا الذي كان يتمتع رسميًّا بهذه الجنسية. يسوع كان هنا يعلن أنه أكثر من مجرد مواطن يهودي، بل هو أيضًا روماني، هو مواطن عالمي لا ينتمي لوطن واحد. ثم أن السمكة وليس بطرس الذي اصطادها وفقًا لتعليمات يسوع هي التي دفعت الإستار (4 دراهم أو ما يوازي أجرة أربعة أيام) لو كان بطرس ذهب للصيد أربعة أيام وأتى بالدراهم لكنا قلنا بطرس دفع الجزية. لكن يسوع هنا يقول إنه ابن الكون كلِّه، الخليقة العاقلة والجامدة، بل إنه أيضًا ينمتي إلى ما فوق أو ما وراء الخليقة، هو ابن الله سيد المعجزات.

وفي كل الأحوال هذان الحدثان المتصلان بعلاقة يسوع بالسياسة يُظهِران وعيَه السياسيَّ العميق، ويظهران موقفَه السياسيَّ السلميَّ والمبادئيَّ، وعزوفَه عن دور الثائر العنيف ودور النبي المحارب أو دور الملك الحاكم بالسلطان الإلهي لأجل حماية مشروع الله.